- أبت، إن معلميّ هذا يعادل كلّ كرادلة روما.

عند ذلك إلتفت الطبيب اليّ وقال:

- مادمت أنا هاهنا فسأسهر على علاجك. لكنني أنذرك بهذا، إن كنتَ قد ضاجعت أمرأة فهذا آخر عهدك بالدنيا.

أجبت:

- الأمر كما خمنّتَ فقد ضاجعت أمرأة ليلة أمس.

- متى كان ذلك وأيّ نوعٍ من النساء هي؟

أجبت:

- طوال ليلة البارحة. وهي صبية في مقتبل العمر جداً.

وشعر بأن مايقوله هو السخف بعينه. فسارع يستدرك موقفه بقوله:

- مادامت الأورام حديثة لم تتقيح بعد وقد بدأنا العلاج في وقت مناسب، فلا يتملكك الخوف الزائد. إني سأشفيك حَتماً.

وبعد أن عالجني إنصرف عنيّ. وما كان يغيب عن نظري حتى أقبل واحدٌ من أخلص أصدقائي وهو (جيوڤاني ريگولي Giovanui Rigagli). وشاركني الحزن على مرضي وإنفضاض الخلاّن عنيّ وقال مؤكداً:

- إعتمد عليّ يا بنڤنوتو صديقي. سأبقى هنا ولن أتركك حتى تُبلّ.

فرجوته الاّ يدنو منيّ فأنا مقضيّ عليّ وطلبت منه أن يقوم بعمل واحدٍ لي: أن يأخذ ما أودعتُ من كراونات في صندوق صغير بالقرب من فراشي ويرسلها الى أبي المفجوع حالما يقبض الله روحي مع طيٍّ رسالة تُكتب بأسلوب رقيق بأني كنت من جملة ضحايا ذلك الوباء الرهيب.

أجاب ذاك الصديق العزيز بلهجة قاطعة إنه لن يتركني. وهو يعرف حقّ المعرفة ماذا يترتب عمله لصديقٍ عزيز مهما كانت النتيجة. وبمعونة من الله مرت الأيام متعاقبة وبفضل العلاج الناجع مرّت الأزمة وبدأت صحتي تتحسنّ بإطراد الى أن شفيت من الداء الفتاك. ولم أصبر على الجرح ليلتئم فقد كنت ودمّلي محشوّ بالقطن واللفائف - أخرج للنزهة على صهوة حصان قميءٍ غير مروض، حجمه لايزيد عن حجمّ دبّ فتيّ كبير يكسو جسمه شعر بطول أربع أصابع كالدب تماماً. فأنطلق به لزيارة الرسام (روسوّ) الذي كان يعيش خارج روما بالقرب من (چڤيتا ڤيكيا Civita Vecchia) في موضع يدعى (چرڤايترا Cervatera) وهو من أملاك كونت (انگويّارا Anguillara). وكان سرور صديقي برؤيتي عظيماً. فبادرته قائلاً:

- جئت لأعمل بك ما عملت بي قبل أشهر عدة.

فأغرق في الضحك وأحاطني بذراعيه وقبلني وطلب منيّ أن الزم جانب الهدوء بسبب الكونت. ونعمت بضيافة مريحة جداً أرفل في حلة من السعادة وأستمتع بأجود الخمر وأطيب المآكل وبإكرام الكونت وعطفه. وإعتدت التوجه الى ساحل البحر يوميّاً فأتجول على طوله وحدي ثم أترجل وأقوم بجمع كميّات نادرة من الحصى والأصداف والقواقع من كل شكلٍ ولون. وفي آخر يوم نزهة لي

هاجمني على الساحل جماعة من الرجال الملثمين نزلوا الى الساحل من مركبٍ شراعيّ مغربيّ وعندما خُيّل لهم إني مطوق وقد سُدّت أمامي سبل النجاة علوت ظهر حصاني الصغير بقفزة واحدة مصمماً على أن أقذف نفسي أمّا في أحضان إبليس أو في أعماق البحر الأزرق. إذ كنت في موقف خطيرٍ للغاية مدركاً بأني إمّا سأردى برصاصةٍ وإمّا سأغرق. ولكن حصاني – وحمداً لله – قفز قفزة هائلة وبهذا كتبت لي السلامة. فتوجهت بالصلاة الى ربّ العالمين. وأبلغت الكونت بما حصل. فأطلق إنذاراً ونظمت حملة إلاّ أن المركب كان قد أقلع. وفي اليوم التالي عدت الى روما سعيداً معافى.

خفّت حدّة الطاعون وانحسر ظلّه وراح الناجون منه يقصد بعضهم بعضاً مهنئين بالنجاة بشوق وحنان. ومن هذا الفرح والإبتهاج انبثقت جمعية تضم نخبة الرسامين والنحّاتين والصاغة في مدينة روما. ومؤسس هذه الندوة نحّات يدعى (ميكالانيولو) وهو من أهالي (سيينا). وكان فناناً قديراً يضاهي أي فنان آخر في مجال صنعته[٨٦]. على إنه كان فوق كلّ هذا خفيف الظلّ مؤنساً طيّب المعشر. ومن ناحية السن كان أكبرنا، إلاّ أن حيويته كانت تجعله يبدو وكأنه أصغرنا.

وإعتدنا أن نجتمع كثيراً، مرتين في الأسبوع على الأقل. وعليّ أن لا أنسى بأن جمعيتنا هذه كانت تضمّ أيضاً كلاً من (گويليو رومانو Giulio Romano)[٨٧] الرسام و(جيانفرانشسكو) تلميذي (رافائيل) الألمعيّين. ذلك الأستاذ الأوربيني العظيم. وعلى أثر تعددّ إجتماعاتنا. قررّ رئيسنا الرائع. بأن يجتمع سائرنا في داره لتناول العشاء وأن يُحضر كل واحد منا ومعه ما أطلق عليه ميكالانيولو "غُرابه" ومن يأتي وحيداً ولايملك عشيقة من بغاياَ المدينة ويفشلَ في العثور على واحدة يُغرّم بدفع نفقات عشاء الآخرين.

وقد لقي أولئك الذين لا صاحبة لديهم المتاعب للعثور على رفيقة وبذلوا ما لايستهان به من مالٍ كيلا يصابوا بالخزي في حفلة عشائنا الباهرة. ولم يكن هذا مشكلة بالنسبة اليّ كما خيل لي فهناك فتاة بارعة الحسن تدعى (پانتاسيليا Pantasilea) كانت تحبني حباً جماً. لكني أضطررت الى التنازل عنها لصديق عزيز هو (باكياكّا Bachiacca)[٨٨] الذي كان ومازال مدلّها بحبها. وقد نجم عن هذا ما ينجم أحياناً من خصام بين المحبين. إذ لما رأت (پانتاسيليا) السهولة التي تخليت بها عنها لـ(باكياكا) إستنتجت بأني لا أهتمّ بها قلامة ظفر ولا أكترث لحبّها مهما عظم وبعد ذلك بقليل. أدّى عزمها على الثأر لنفسها منيّ بسبب هذه الإهانة الى متاعب لانهاية لها مما سآتي الى ذكره في الوقت المناسب.

وإقترب أجل الحفل والظهور فيه كلّ مع "غُرابه" وأنا ما زلت مفتقراً الى واحدة. ولكني رأيت من

(٨٦) ينبغي أن لايُخلط بين هذا النحّات وبين ميكالنجلو بوناروتي الشهير. إن أشهر أثر خلّفه ميكالانيولو هو منحوتة قبر الپاپا أدريان السادس في الكنيسة الألمانية (سانتاماريا دللا انيما) وواضع تصميمه هو (پيروزّي).

(٨٧) گويليو رومانو (١٤٩٢-١٥٤٦) رسام معروف ومهندس معماري تلميذ رافائيل ووارث تركته إستخدمه الپاپا كليمنت السابع وآل تشيجي. ثم قام بهندسة وزخرفة قصر (دل تي Te del) في (مانتوا)، أنظر ڤاساري ج ٦.

(٨٨) المقصود أحد إثنين: إمّا فرانشسكو وإمّا أنطونيو وهما توأمان لڤردي Verdi والأول منها رسام بالفسيفاء. أمّا الثاني فقد برع في فن التطريز.

الخطأ أن يفشل المرء في أمر سخيف كهذا. إن أشدّ ماكان يزعجني في الأمر هو كرهي أن يراني ذلك الجمع من الرجال الممتازين قادماً وتحت جناحي فزّاعة[٨٩] قذرة عجوز. أخيراً أهتديت الى حيلة لطيفة يستمتع بها الجميع الى أقصى حدٍ.

صَحّ عزمي على ما أنا في سبيله ثم إستدعيت فتىً في السادسة عشرة هو أبنُ لنحّاس إسپاني يسكن جواري كان يدرس اللاتينية مثابراً دؤوباً. ويدعى (دييگو Diego). وكان وسيماً بديع الصورة ذا قسمات رائعة وبشرة عجيبة تكوين رأسه أجمل من رأس تمثال أنتينُس الأثري[٩٠] وكثيراً مارسمته وقد أكسبني ذلك شهرةً كبيرة. وهو منقطع لنفسه لايخرج مع أحد ولذلك كان مجهول الهوية تماماً لايعرفه بشر كذلك كان سيء الهندام مهمل الثياب متعلق بدراسته الثمينة لاغير. عند دخوله طلبت منه أن يدعني ألبسه ثياب النساء وكنت قد أعددتها لهذه الغاية. فلم يبد إعتراضاً وقبل بإرتدائها حالاً. ثم أسرعتَ فجمّلت ملامحه بالأسلوب الجذاب الذي صففتُ به شعره. وثبتّ قرطَين في أذنيه تزينهما لؤلؤتان كبيرتان جميلتان ولما كان في القرطين فتحة فقد شبكتهما في شحمتي أذنيه فبدتا وكأنهما مثقوبتان ثم إني طوقت جيده ببعض القلائد الذهبية الجميلة المكفتة بالأحجار الثمينة تكفيتاً حاشداً. وزينت أصابعه الأنيقة بالخواتم ثم وبإبتسامةٍ على شفتي أمسكت به من أذنه برقّة وجررته الى المرآة الكبيرة فما رأى هيئته فيها حتى بُهت وصاح:

– سبحان الله! أهذا هو دييگو؟

قلت:

– أجل هو دييگو بالتأكيد. إنه دييگو الذي لم أطلب منه حتى الآن شيئاً لكني أريده الآن أن يُسدي اليّ معروفاً لاضرر فيه. وهو أن يرافقني لتناول العشاء بعين الثياب التي تكسوه الآن مع تلك الجمعية الشهيرة التي كثيراً ما حدثتهُ عنها.

فقد الفتى تحمّسه – وكنت أعرفه شاباً بعيد النظر، متزن العقل، حديد الذكاء. وأطرق وأخذ يحدق في الأرض مليّاً لايبدي حراكاً ولاينبس بحرف. ثم رفع نظره فجأة وأرسله الي وقال:

– مع بنڤنوتو؟ إني مستعد لذلك فهيّا بنا.

وضعت حول رأسه وشاحاً كبيراً وهو ما يسمىّ في روما بـ"كفيّة الصيف" وعندما بلغنا مَحلّ الإجتماع وجدنا المجلس مكتملاً ورُحِّبَ بنا وكان (ميكالاينولو) يقف بين (گويليو) و(جيانفرانشسكو). وعندما رفعت الوشاح عن رأس فتاي الجميل بسط (ميكالانيولو) ذراعيه، وكان كما قلتُ أسرعنا بديهة وأحضرنا نكتةً، ثم وضع إحداهما الى عاتق (فرانشسكو) والثانية على عاتق (گويليو) مستخدماً كل قوته لإجبارهما على الركوع. ثم خرّ هو الآخر على ركبته راكعاً متظاهراً

(٨٩) وهو ماينصب في مزرعة لتخويف الطيور وبالعامية عندنا يسمى "خرّاعة خضرة". وقد آثرنا ترجمتها حرفياً حرصاً على فكاهة چلليني.

(٩٠) شاب أغريقي من بثينيا أشتهر بجماله كان عبداً للإمبراطور الرُومانى هادريان (٧٦–١٣٨) ثم لقي الحظوة عنده ونحتت له عدة تماثيل في روما.

بطلب الرحمة ومهيباً بكلّ المدعوين:

-أنظروا الى هذا! أنظروا الى ملائكة السماء كيف يُصوَّرون. مع إننا نسميهم "ملائكة Angeli » فإن بعضهم "نساء Angiole".

ثم شرع يغنيّ:

يا ملاكـــــاً ساحـراً أنت يا أبهى الملائك
جئت أستجدي حماكا فإحفظ الروح وبارك

وهنا أغرق مخلوقي الجميل في الضحك. ورفع يده اليمنى ومنحه البركة الرسوليّة بلهجة وقورة متزنة. ثم هبّ (ميكالانيولو) منتصباً على قدميه وقال إنه ليقبل قدميّ البابا لكنه يلثم وجنتي الملائكة ولما قرن قوله بالعمل أحمرّ وجه الشاب خجلاً فبدأ أكثر جمالاً. بعد هذه الإفتتاحية إكتشفنا أن البرنامج مليء بالقصائد التي كنا قد نظمناها وأرسلناها إلى (ميكالانيولو). فبدء رفيقي الفتى يقرأها كافة غير تارك واحدة. وكان أثناء ذلك يزيد جمالاً بشكل غير إعتيادي أجدني عاجزاً عن وصفه، ثم تلا ذلك دور التعليقات والأحاديث لن أذكرها هنا بالتفصيل لأنها خارجة عن الصدد. وأكتفي بإثبات حديث واحدٍ لأنه من كلام ذلك الرسام الممتاز (گويليو): أدار عينه الحادة النفاذة في إرجاء القاعة متفحصاً كل الموجودين ومحدّقاً بالنساء خصوصاً. ثم إلتفت الى (ميكالانيولو) وقال:

-(ميكالانيولو) أيها العزيز! إن إسم الـ"غُراب" الذي إخترعتَه اليوم يناسب هذا الجمع تماماً. إلاّ أنهن لايملكن حتى جمال (الغُراب) عندما يجلسن الى جنب أجمل الطواويس طراً.

عندما حضر الطعام وقُدّم هممنا بالجلوس الى المائدة فرجا (گويليو) أن يسمح له بتعيين مواقع المدعوين. فأجيب طلبه فشرع يتناول يد السيدات كلاً بدورها ويقودها الى الموضع الذي إرتآه لها وهو الجزء الداخلي وجعل رفيقي في الوسط ثم أجلس الرجال في الجزء الخارجي وجعلني في الوسط قائلاً إني أستحق أرفع منزلةٍ. وكان ثَمّ تعريشة جميلة من الياسمين الطبيعي خلف موقع السيدات وبهذه الخلفية إنعكس جمالهن ولاسيما صاحبي. إنعكاساً أخاذاً تقصر الكلمات عن وصفه. بعد كلّ ذلك باشرنا جميعاً في تناول العشاء الفاخر الشهيّ.

بعد الفراغ من الأكل سمعنا غناءً ساحراً مع موسيقى أخاذة. كان العزف والإنشاد من المحفوظ المتداول. وطلب رفيقي المحبوب أن يُسمح له بالمشاركة. وأدى مقطوعته ببراعة فاقت كل ما سمع قبله بحيث بهت الحاضرون جميعاً. والواقع أن (گويليو وميكالانيولو) ما عادا يتحدثان عنه هازئين مستخفين كما كان دأبهما من الأول. وإنقلب هزل مديحهما جداً وأخذا يظهران ما يشعران به من إعجابٍ حقيقي. بعد أن فرغنا من الغناء والموسيقى إنبرى (أوريليو آسكولانو Aurelio Ascalono) وهو طرّاب عجيب ليتحفنا بقصيدة مرتجلة من تلحينه ونظمه تتضمن مديحاً للسيدات. وفيما كانت إيقاعاته السماوية تتحدر من فمه رائعة أخاذة، كانت السيدتان الجالستان على طرفي رفيقي مستمرتين في ثرثرتهما فقصّت إحداهما حكاية سلوكها طريق الزلل وراحت الأخرى تسأل رفيقي كيف زلّت (به) القدم. ومن هم (عشاقه) وكم من الزمن (لها) في روما؟ وما الى ذلك من أسئلة.

وفي الواقع لو لم يكن عليّ إلاّ أن أصف ماجرى، لأعطيت تفاصيل ما لايحصى من الوقائع الطريفة التي حصلت بسبب حنق (پانتاسيليا) عليّ. لكن هذا يخرج بي عن قصدي ولذلك سأمر بها مرور الكرام.

بدأت ثرثرة هاتين الفتاتين الوضيعتين تثقل على رفيقي الذي سميناه (پومونا) فبدأت (پومونا) وسط إنزعاجها تحاول أن تتخلص من حديثهما السخيف وأخذت تنقلب الى هذا الجنب تارةً والى الجنب الآخر تارة أخرى فسألتها الفتاة التي جاءت بصحبة (گويليو) أتشعر بشيء من الألم. أجابت أجل فثم شيء من الألم فهي تعتقد إنها حُبلى منذ أشهرٍ وهي تشعر بآلام في الرحم. وفي شعورٍ منهما بالإشفاق مدتا يديهما حالاً تتحسان بطن رفيقي لتتبيّنا إنها ذكر! فسحبتا يديهما كأن أفعى لدغتهما ونهضتا من مجلسهما وإنهالتا عليه شتائم هي في العادةٍ من العبارات الموقوفة على الرجال الوسيمين! وإمتلأت القاعة ضجيجاً وضحكاً من فرط الذهول والدهشة. إلاّ أن (ميكالانيولو) الصارم طلب تعويضاً من الجماعة لفرض عقوبة مناسبة في رأيه وعندما منح ذلك. تقدَم مني ورفعني الى الأعلى وسط هتافات عامة. وهتف هو بدوره:

- عاش بنڤنوتو السيد! عاش بنڤنوتو السيد!

وأضاف يقول: هذا هو العقاب الذي أستحقه لمثل هذه الحيلة المُحكَمة. بهذا الشكل كانت خاتمة حفلة عشائنا ونهاية يومنا السعيد فإنصرف كلّ الى منزله .

لو أقدمت على وصف مفصّل لما أنجزتُ من أعمال وكم عدد الأشياء التي أخرجتها يدي ولمن صنعتها فسيقتضي ذلك مني وقتاً طويلاً جداً. ولأخلص الى القول بأني كافحتُ وناضلتُ وبذلت قصاراي لإتقان كل ما أتيت الى ذكره من الفنون. إشتغلت فيها دون توقفٍ. إلاّ أن الفرصة لم تعنّ لي بعد لوصف أهمّ وأبرز ما صنعته وسأنتظر الوقت المناسب لذلك، ويخيل لي إن الفرصة أضحت قريبة.

في ذلك الحين كان (ميكالانيولو) النحّات الذي نوهت به آنفاً، يعكف على العمل في قبر الپاپا المتوفى (أدريان). وتركنا (گويليو رومانو) الرسام ليشغل وظيفة عند ماركيز (مانتوا Mantua). وتفرّق باقي أعضاء ندوتنا، بعضهم هنا وبعضهم هناك، وأنصرفوا الى أشغالهم. وهكذا إنفرط عقد الندوة الرائعة التي تحدثت عنها وأصبحت أثراً بعد عين.

في حدود ذلك الزمان وقع في يدي عدد من الخناجر التركية مقابضها ونصالها من الفولاذ بل حتى أغمادها. وقد تفنن حفار والحديد في زخرفتها بنقوش على الأسلوب التركي الرفيع، وملأوا النقوش النباتية المتشابكة المحفورة بالذهب. فتملكتني رغبةٌ محرقة لتجربة يدي في هذا الفن الذي يختلف تماماً عن الفنون الأخرى ووضعت مهارتي موضع إمتحان وعملت عدداً من الخناجر فحققت نجاحاً باهراً بها إذ كانت أدق صنعة وأقوى من مثيلاتها التركيات وثم أسباب لذلك منها اني أقطع في المعدن قطعاً أعمق وأوسع في القاعدة من قطع الصانع التركي. ومنها أن أساس الزخرف التركي هو ورق نبتة الليف مع عدد من زهرات عُبّاد الشمس الصغيرة، وهي في الواقع لطيفة الى درجة كبيرة، لكن المرء يدركهُ السأم من النظر إليها خلافاً لتصاميمنا الإيطالية. فالعين تملّ المنظر الرتيب بأسرع مما تملّ من

دوام النظر الى الزخرف الهندسي العربي (أرابيسك Arabesque). عندنا في إيطاليا تُرسم الزخارف النباتية بمختلف الأوضاع والأشكال والأنواع. وللومبارديين أسلوب طريف في التأليف بين نبتتي اللبلاب والفاشرا[٩١] هو مما ترتاح له العين ولاتشبع من النظر إليه. وللتوسكان والرومان أساليب أبدع تقدموا بها على السابقين وأحسنوا لأنهم ينقلون أوراق الأقنتسْ Acanthis[٩٢] المعروف عند العامة بنبات (مخلب الدب) ويبرزون براعمها وأزاهيرها ملتوية متعاطفةً. ويكون وقعها في النفس ساحراً لو حشر بينها مختلف أنواع الحيوانات وبعض الطيور. ومما يختاره الفنان هنا، يظهر ذوقه وإتجاهاته.

إن الفنانين ينقلون تصاميم عن الطبيعة فيجدونها في الأزهار البريّة. مثلاً الأزهار التي تسمّى بـ(أنف العجل). والفنان الحاذق يستمدّ أفكاراً جميلة من أزهار أخرى. والناس الذين يجهلون هذه الأمور يطلقون على تلك الأخيلة الفنية مصطلح (التهاويل=grotesque) سُميت بهذا الأسم في عصرنا الحالي لأن التلاميذ عثروا على أشباهها في كهوف تحت الأرض في روما. هذه الكهوف كانت في قديم الأزمان تستخدم للسكنى كالغرف أو الحمامات أو أماكن دراسةٍ أو قاعات أو ما شاكل وهي تحت سطح الأرض وقد بقيت حيث هي في حين كان مستوى الأرض يرتفع بمرور السنين. وفي روما يطلق على هذه الكهوف والمغاور أسم grottos وهو أصل كلمة grotesques (تهاويل) إلاّ أن هذا ليس الاسم الموافق للمسمّى. فمثلما كان الأقدمون مُغرمين بخلق الغيلان، بالتهجين بين العنز والبقر والخيل، فيطلقون على الهجين المولود إسم الغول كذلك يخلق فنانونا غيلاناً من نوع آخر بالتأليف والمزج بين أنواع مختلفة من النبات. ولذا فكلمة (غيلان) هي المصطلح الصحيح وليس التهاويل. وقد ألفّت تصاميمي النباتية بهذا الشكل وبعد أن كُفّتت، بدأ عَملي أجمل وأكثر إثارةً من صنوها التركي.

في حدود تلك الفترة وقع بيدي بعض المزهريات وهي جرار أثرية مملوءة رماداً وقد عثرت في هذا الرماد على عدد من الخواتم الحديدية القديمة مكفتةً بالذهب وقد رصع كل خاتم منها بصَدفَة بحرية صغيرة. وسألت الخبراء الملمين فقالوا كان يتحلىّ بهذه الخواتم كلّ من يريد أن يبقى في حالة إتزان ورباطة جأش مهما صادفه في حياته من أحداث جسام حسنةً كانت أم سيئة. وعندما إنكشف لي سرُّها وبناء على طلب بعض السادة من أصدقائي الحميمين، بدأت بصنع عدد قليل منها بعين الشكل. إلاّ أن خواتمي كانت من الفولاذ الجيد المطاوع. وبدأ منظرها في غاية الجمال بعد أن نقشتها وكفتّها بالذهب وكنت أحصل في أكثر الأحيان على مايزيد عن أربعين كراوناً ثمناً لمجرد عملي الخاتم الواحد.

كانت موضة العصر تقضي بإقتناء طغراءات ذهبيّة صغيرة تثبت في مقدمة القبعة. وكان النبلاء والسادة يفضلونها أن تحفر بنقش أو شعارٍ وقد عملت عدداً لايُستهان به منها وشغلها متعب كثيراً. وكنت قد ذكرت أن (كارادوسو) ذلك الرجل القدير تخصص في صنعها وقد تضمنت تصاميمه لها

(٩١) نبات من الفصيلة القرعية ذو أوراق عريضة.

(٩٢) نبات ذو زهر أبيض أو أصفر أو قرمزي Snapdsagon.

أكثر من صورة واحدة، وبسبب ذلك لم يكن يرضى بأقل من مائة كراون ذهبي ثمنا للطغراء الواحدة. ولهذا ولأنه بطيء العمل فضّل بعض النبلاء مراجعتي. فعملتُ لهم من بين أشياء أخرى ميداليةً نافستُ بها الفنان الكبير. حفرت فيها أربعة شخوص وعانيت فيها مشقّة وجهداً خارقاً واتفق بأن الأشراف الذين كنت أشتغل لهم عمدوا الى مقارنة ميداليتي بتلك التي أنجزها ذلك الفنان الحاذق (كارادوسو) فقالوا إنها أبرع صنعةً وأجمل. وتركوا لي أمر تحديد الأجر لأنهم يريدون إرضائي بالقيمة مثلما أرضيتهم بعملي. فقلت إن خير مكافأة أنشدها هو مضاهاتي الرجل الذي يعدّ إمام الصنعة بلا منازع. فإذا شاطرني السادة النبلاء رأيي هذا فأنا أعدُّ نفسي متقاضياً أجراً سخياً لقاء أتعابي. قلت هذا وانصرفتُ إلاّ إنهم أرسلوا لي حالاً أجراً سخياً أرضاني تماماً. إن طموحي في أن أبلغ بعملي درجة الإتقان أصبح عظيماً بحيث كان السبب في كل ما تلا بعد ذلك.

ولأنحرف الآن قليلاً عن أمور الفن. لأني أريد تسجيل بعض الأحداث الخطيرة التي اعترضت حياتي المضطربة الحافلة بالمآزق. سبق لي وأن أثبتُّ بعض التفاصيل عن ندوة الفنانين الرائعة التي كنت أحد أعضائها وما أسفرت عنه علاقتي بالمرأة (پانتاسيليا) من مفاجاءات طريفة. وكيف أن حبّها الزائف أصبح موضع إحتقاري. لقد زاد حقدها عَليّ بسبب مزحتي بإصطحابي (دييگو) الفتى الإسپاني الى مأدبة العشاء. فأقسمت أن تثأر لنفسها منيّ. وحانت فرصتها عندما تهيأت الظروف لها من حادث معين سأصفه وبنتيجة ذلك تعرضت حياتي لخطر عظيم.

وما حصل هو هذا: قبل كلّ شيء قدم الى روما شاب يدعى (لويجي پولچي[٩٣] Luigi Pulci) وهو ابن ذاك الـ(پولچي) الذي قُطع رأسه لإقدامه على جريمة الزنا بابنته. هذا الشاب كان من الموهوبين. فهو شاعر وعالم جيد باللاتينيّة، حسن الكتابة والتأليف، وهو في عين الوقت حسن الصورة بل في غاية الوسامة والجاذبيّة. كان قد ترك لتوّه الخدمة عند أحد الأساقفة وجاء روما وداء السفلس ينخر فيه نخراً.

جرت العادة في أيام الصيف أن يجتمع الناس مساءً في شوارع فلورنسا وكان لويجي هذا أيام صباه يؤدي في هذه المناسبات أدواراً غنائية إرتجالية دائماً مع نخبة من أبدع الأصوات وأشدّها سحراً. حتى أن (ميكالنجلو بوناروتي) الملهم أمير الرسامين والنحّاتين كان يندفع متلهفاً الى أي محل يغني فيه ليستمتع بالأصغاء إليه وكنت أرافقه مع صائغ آخر يدعى (پيلوتو Piloto) وهو فنان موهوب. فنتبع (لويجي) نحن الثلاثة أينما كان وبهذه الطريقة نشأت العلاقة بيني وبينه.

جاء روما بعد مرور هذه السنين العديدة وهو في هذه الحالة السيئة التي ذكرتها، باحثاً عنيّ وتشبّث بي راجياً مساعدتي لوجه اللّه. فنازعتني عوامل الشفقة بسبب مواهبه العظيمة ووفاءً لحقوق المواطنة ولكوني رقيق القلب بطبعي. فآويته في بيتي وأمنّت له المعالجة الطبيّة فإستعاد عافيته بسرعة نظراً

(٩٣) وهو كذلك حفيد لويچي پولچي (١٤٣٢-١٤٨٤) الشاعر الفلورنسي مؤلف الكتاب الشهير في الأدب الإيطالي (مورگانتو Morganto).

لكونه في مقتبل العمر وكان مكبّاً على دراساته أثناء العلاج فساعدته في تأمين طائفة من الكتب بقدر الإمكان. فأثّرت فيه معاملتي الحسنة وأدرك كم هو مدين لي وراح يلهج بشكري ويهتبل كلّ فرصة ليظهر مدى إمتنانه وهو يرسل دموعه مردداً: "لو فتح الله عليه بنعمة فأنه سيجازيني بقدر حسن صنيعي معه". وكنت أجيبه بأني لم أفعل كل مارغبت في أن أفعله وإنما قمت بما أمكنني فحسب ومن واجب البشر أن يُعين بعضهم بعضاً. على إني ذكرته بأن يردّ عطفي بعطفٍ منه على المحتاج كما احتاج هو اليَّ. وقلت له: اعتبرني صديقك الآن وعلى الدوام.

مالبث هذا الشاب أن راح يغشى محافل روما وأوساطها الإجتماعية العليا فوجد ملجأ لنفسه بأن دخل في خدمة أسقف سن يبلغ الثمانين من العمر يدعى (گورجنسيس Gurgensis)، وكان لهذا الأسقف أبن أخ من سادة البندقية يدعى (جيوڤاني). الذي تظاهر للناس بأنه شديد الأنجذاب بمواهب (لويجي) واتخذ من هذا الإعجاب والإفتتان تعلّةً ليفتح له أبواب منزله على مصاريعها ويطلق له العنان يسرح ويمرح ويأمر وينهي كأنه ربّ البيت. واتفق أن حدّث السيد جيوڤاني عني وذكر له المعروف الكبير الذي أسديته له وكم هو مدين لي فكانت النتيجة أن السيد جيوڤاني رغب في لقائي.

وفي ذات يومٍ كنت قد هيأت بعض عشاء لـ(پانتاسيليا) ودعوت مجموعة من الأصدقاء الممتازين معها. إذ بنا ونحن نهمُّ بالجلوس – نُفاجأ بدخول (جيوڤاني ولويجي) وبعد التعارف بقيا لمشاركتنا العشاء. ما أن وقع نظر المومس الصفيقة الوجه على هذا الشاب الوسيم حتى قررت إقتناصه ولم تفتني ملاحظة ذلك. وبعد أن فرغنا من الأكل مباشرةً إنتحيت بلويجي جانباً وقلت: لما كان يصرّ بأنه مدين لي بالكثير، فعليه أن لايحاول مطلقاً التقرّب من تلك الساقطة. فأجاب:

– عزيزي بنڤنوتو. أتظني بهذه الدرجة من الجنون؟

أجبت:

– كلاّ لستَ مجنوناً، بل أنا شاب فحسب. وأما عني فقسماً بالله إنيّ لا أكترث بها ولا أحفل لكن سآسف إذ أراك تسقط سقطةً عنيفة بسببها.

عندما وعى كلامي رَدّ بحميّة وإخلاص انه يتمنىّ من الله أن يهوي من حالق وتُدقّ عنقه إن وجه إليها كلمة واحدة.

لابدّ أن الفتى النكود قد صلىّ لربّه بحرارةٍ فاستجاب إليه وكسر عنقه فعلاً كما سأروي هذا الآن:

مالبث أن اتضح للملأ إن حُبّ جيوڤاني له كان حُبّاً قذراً شاذاً وليس علاقة حبّ بريء. كان (لويجي) يشاهد كُلّ يوم في حُلّةٍ تختلف عن حلّة أمسٍ وكلها من الحرير والمخمل، وكان جليّاً إنه سلك سبيل الرذيلة وانحطّ الى الدرك الأسفل من الخلق مهملاً مواهبه الرفيعة. ثم صار يتحاشاني ويتظاهر بعدم رؤيتي أو التثبت من شخصي بعد أن أنبّتُه ولمتهُ على سلوكه سبيل هذه الرذائل الحيوانية التي ستدق عنقه يوماً ما كما حذرته من قبل.

ودفع خليله (جيوڤاني) مائة وخمسين كراونا ثمناً لجواد أسحم أصيل له. كان الجواد مرَوّضاً ومدرباً الى آخر حَدّ يركبه (لويجي) يومياً متباهياً طروباً ليقوم بزياراته للبغي (پانتاسيليا). وقد بلغني هذا

فلم أحفل مثقال ذرةٍ. إذ رأيت أن كلّ أمرءٍ يتصرف بحسب طبعه، وحصرت إهتمامي بدراساتي.

ثم وفي ذات يوم وكان الوقت صيفاً واليوم يوم أحدٍ، دعاني (ميكالانيولو) النحّات لتناول العشاء وكان (باكياكّا) الصديق الذي ذكرته سابقاً مدعواً أيضاً وقد جاء مصطحباً (پانتاسيليا) رفيقة فراشه السابقة. فجلست الى المائدة بيني وبين (باكياكّا) وبعد أن مضى نصف مدة العشاء نهضتْ واستأذنتْ بالخروج قائلة إنها تشعر بضيق ولن تلبث أن تعود. ومضينا في تناول الطعام وتبادل الأحاديث الودّية. إلاّ أن غيابها طال دون داعٍ. وكنت قد أرهفت أذنيّ. وخيل لي إني سمعت ضحكة خفيفة في عرض الشارع. فقمت الى النافذة القريبة الى محَلّ جلوسنا والسكين الذي أستعمله في الأكل بيدي وبمجرد أن رفعت نفسي قليلاً، أمكنني أن أشاهدهما معاً في الزقاق: (لويجي پولچي) و(پانتاسيلينا) وسمعت الأول منهما يقول:

– لو شاهدنا هذا الشيطان (بنڤنوتو) لكانت عاقبتنا وخيمة.

فأجابته:

– لا داعي للخوف. أسمع الضجة التي يحدثونها. نحن آخر من يفكرون فيه.

لم يكن لديّ شكّ في هويتهما. عندما سمعت أقوالهما إندفعت من النافذة وقبضت على (لويجي) من معطفه. وكنت سأقضي عليه بالسكين التي في يدي إلاّ أنه كان ممتطياً جواداً صغيراً أبلق فلكزه بمهمازيه وإنطلق تاركاً معطفه في قبضتي ناجياً بجلده. ولجأت (پانتاسيليا) الى الكنيسة المجاورة. وفي عين الوقت خرج الجميع يتراكضون وراحوا يتوسلون بي أن اهدأ وأكبح جماح غضبي ولا أزعج نفسي وأزعجهم بسبب مومس رخيصة. فأجبت إني غير مهتم بها ولكنيّ مهتم بأمر هذا الفتى الوغد الذي هزء بي وأزدراني. ورفضت أي تبرير وأصمَمت أذني عن المحاولات التي كانت تبذل لإقناعي بإهمال القضية. والتقطت سيفي وانطلقت بمفردي بإتجّاه (پراتي Prati) ولم يكن المنزل الذي تناولنا فيه العشاء بعيداً عن باب القلعة المؤدي الى (پراتي).

مالبثت الشمس بعد مسيري أن اذنت بالغرُوب. عدت الى داخل روما وأنا أسير الهوينا. وكان الظلام قد ساد إلاّ أن أبواب المدينة لم تُغلق بعد. بعد الغروب بحوالي ساعتين بلغت منزل (پانتاسيليا). وكنت قد صممت على أن أنزل البلاء الأعظم بكليهما إن وجدت (لويجي) هناك. وبعد أن أكدّ لي سمعي وبصري أن المنزل خالٍ إلاّ من خادم حقيرة صغيرة السن تدعى (كانيدا Canida) عدتُ أدراجي الى منزلي وتخلصتُ من معطفي وغمد سيفي وكررت راجعاً الى المنزل الذي كان خلف الضفة Bamchi على نهر التيبر. كان ثم عوسج شائك كثيف هو سياج لحديقة تعود الى صاحب حان يدعى (روملو Romolo) تقع مقابل المنزل فأخفيت نفسي فيه منتظراً عودة المرأة مع لويجي. وبعد برهة مارأيت إلاّ و(باكياكا) يقف الى جانبي لا أدري كيف؟ أكان حدساً منه أو أنّ أحداً دلهّ على مخبأي. همس في أذني بصوت حفيض:

– أهذا هو ثرثاري؟ (بهذا كان ينادي أحدنا الآخر تحببّاً وعلى سبيل المزاح) ثمّ راح يتوسّل بي وهو يكاد يبكي ويستحلفني بمحبة الله أن لا أُلحق أذىً بالفتاة المسكينة فهي غير ملومة قطّ.

فأجبته:

- إن لم تنصرف فوراً فإني سأهوي بسيفي على رأسك.

وإستبدّ الرعُب بـ(ثرثاري) صديقي القديم عند سماعه ماقلت بحيث قُلقلت أمعاؤه وشعر بإسهال لاقبل بدفعه فإنسحب يقذف ما في جوفه. كانت الليلة صافية الأديم متلالأة النجوم مُقمرة. وسمعت فجأة وقع سنابك خيل كثيرة تدنو من الجهتين، كان (لويجي) بعينه تصحبه (پانتاسيليا) مع السيّد (بنڤنياتو Benvegnato) المواطن البيروجي أحد حجّاب البابا كليمنت وأربعة ضباط پيروجيين ممتازين وبعض الجنود الفتيان الأشداء وكانوا بجملتهم يبلغون إثني عشر سيّافاً.

ما أن أبصرت هذا وأدركت بألاّ سبيل للنجاة بالفرار. قررت التراجع والاستتار بالعوسج. إلاّ أن الألم برّح بي من جراء وخزات الشوك التي كانت تنال من جسمي كما ينال الشوك من جسم الثور فوطدّت العزم على الوثوب خارجاً والفرار بجلدي وفي تلك اللحظة سمعت (لويجي) يقول وهو يطوق عنق (پانتاسيليا) بذراعه:

- قبلة أخرى نكايةً بذاك الخائن الدساس (بنڤنوتو)...

اجتمعت وخزات الشوك وكلمات الشاب لإشعال النار في أحشائي فما وجدتُ نفسي إلاّ وأنا أهم شاهراً سيفي وأنا أصيح:

- إني قاتلكم لامحالة.

وهوى سيفي بقوة هائلة على كتف (لويجي) إلاّ أن أصدقائه الصعاليك كانوا قد صفحّوه بزردٍ أو ما أشبه، فأنحرف السيف وطاشت الضربة لتصيب أنف پانتاسيليا وفمها وسقط كلاهما على الأرض معاً. أما صاحبي (باكياكّا) الذي إنسدل سرواله نصف المنزوع وتكوّر على قدميه فقد صرخ وأطلق ساقيه للريح. وحملت على الآخرين حملة عنيفة والسيف في يدي. وفي عين الوقت صدر ضجيج هائل من الحانة فخيّل للجنود البواسل أن سريّة من الجند تزيد على المائة في طريقها للإطباق عليهم. على أنهم انتضوا سيوفهم كافةً إلاّ أن زوجاً من الخيل أجفلت وأوقعت الخلل في صفوفهم وشاهدوا اثنين من أشجعهم قد سقطا على الأرض بسبب ذلك فما وسعهم إلاّ أن يلوذوا بالفرار. ولما رأيت النتيجة في صالحي قنعت بالإنسحاب بأسرع ما يمكن ولكن بصورة مشرّفة. إذ لم أشأ إستغلال حظي أكثر مما تحتمه الضرورة. في ذلك الإضطراب أُصاب بعض الضباط والجنود أنفسهم بجراح. وسقط حاجب البابا (بنڤنياتو) الذي ذكرته برضوض وكدمات بعد أن رَمَحهُ البغل الذي كان يركبه ووطئه وكال له بعض الرفسات. وسقط فوقه واحد من خدمه وكان منتضياً سيفه فأصابه بجرح نافدٍ في يده. وبنتيجة ما لقي من سوء حظ راح يشتم ويلعن أكثر من الآخرين ويصرخ متوعداً بالطريقة البيروجية المعهودة:

- قسماً بالله! سأنظر في أن يتولى بنڤنياتو تلقين بنڤنوتو درساً لن ينساه.

ثم أمر واحداً من ضباطه بأنْ يتعقبني ويلقي القبض عليّ. وربما كان هذا الفارس أشجع من الآخرين إلاّ أنه شاب صغير يفتقر الى بعد النظر والحصافة. أقبل هذا الفارس الى المَحلّ الذي انسحبتُ إليه وكان منزلاً لنبيل من (ناپولى) قدّر بعض أعمالى كلّ التقدير وأعجب بشخصيتي العسكرية وطابعي

الحربيّ. فمال اليّ ميلاً شديداً وكان هو نفسه مغرماً للغاية بالفنون الحربيّة. وشجعتني الحفاوة التي لقيتها في منزله حتى لكأني سيد بيتي. فرددت على الضابط جواباً جعله يشعر بالندم بلاريب على تعقيبي.

بعد بضعة أيام اندملت خلالها جراحهم - وأقصد جراح لويجي وبغيّه والآخرين وإنفشأ غضب (بنڤنياتو) وهدأ قليلاً فقصد صديقي النبيل الذي كنتُ قي ضيافته ليحاول إقناعي بمصالحة (لويجي). وأضاف يقول ان الفرسان البواسل الآخرين لا شأن لهم معي ولايضمرون لي سوءً وأنهم يريدون التعرف بي ليس إلاّ. فأعلمهم النبيل المذكور بأنه سيأتي مصحوباً بي أينما شاؤا وسيكون من دواعي سروره أن يقنعني بالصلح. إلاّ إنه أشترط أن لايكون ثمّ عتاب وجدال من كلا الجانبين لأنه من الأمور المخزية جداً البعيدة عن اللياقة، ويكفي أن تجرى المراسيم المعتادة في مثل هذه المناسبات من معانقة وشرب الخمر معاً. وإنه سيكون المتكلم الوحيد وإنه لمسرور جداً لوضع نفسه في خدمتهم.

وهذا ماحصل: في أحد أيام الخميس أخذني هذا النبيل ليلاً الى دار (بنڤنياتو) وكان جميع الجنود المنهزمين هناك وقد جلسوا حول المائدة. كان ثمّ شيء لن يتوقعه (بنڤنياتو) وهو أن صديقي جاء على رأس ثلاثين رجلاً صنديداً مدججين بالسلاح. دخلنا القاعة هو في المقدمة وأنا بعده وقال:

- حيّاكم الله أيها السادة! هذا بنڤنوتو الذي أعتبره كأخٍ، وهذا أنا جئنا هنا مستعدين لتنفيذ رغباتكم.

فأجاب (بنڤنياتو) وهو يواجه رجالنا قائلاً:

- نحن نريد السلم والصلح لاغير.

ثم تعهد بأن لايزعجني بتعقيبات من شرطة روما. فتصالحنا وتصافينا. ثم عدت مباشرةً الى دكاني وصديقي النبيل الناپُليتاني يكاد يلازمني ملازمة الظلّ، لاتمر ساعة إلاّ وهو عندي أو مرسل أحد إتباعه يستدعيني.

أثناء ذلك شفي (لويجي) واسأنف تسكّعه على ظهر حصانة الأسود الفاحم الحسن الترويض. وفي ذات يوم كان يعرض فروسيته خارج باب پانتاسيليا تحت وابل من المطر فزلت بجواده القدم وسقط وحصانه فوقه فكسر فخذه الأيمن. وبعد أيام قلائل قضى نحبه في منزل (پانتاسيليا) وبهذا حقق نذره الذي شدَدّ عليه أمام الله. وهكذا يمكننا أن نرى كيف يجزي الله الصالح والطالح ويعطي كلّ إنسان ما يستحقّ.

في ذلك الحين شبّت نار الحرب الشاملة[٩٤] وفزع الناس الى السلاح. كان الپاپا كليمنت قد أرسل يطلب جنوداً من السيّد جيوڤاني دي مديتشي[٩٥] وما وصلوا حتى انطلقوا في إرجاء روما يعيثون

(٩٤) بدأت الحرب بين الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) وبين فرنسوا الأول ملك فرنسا في العام ١٥٢١ والفترة التي ينوه بها چلليني تتعلق بنقض الپاپا معاهدته مع الإمبراطور الذي قام بدوره بإرسال نائبه امير البوربون لمهاجمة روما في ١٥٢٧.

(٩٥) هو جيوڤاني دللاّ باندي المار ذكره وقد توفي متأثراً بجراحه كما جاء في حاشية سابقة.

فساداً وعمت الفوضى حتى لم يعد يأمن المرء على نفسه من البقاء في دكان عمومي. وهذا مادفعني الى الإنزواء في منزل صغير لطيف خلف الضفة، مواصلاً أشغالي فيه لجميع الذين عددتهم أصدقاءً لي. في ذلك الوقت لم يكن بيدي شيء ذو أهمية كبيرة. ولذلك لاسبب يدعوني هنا الى التحدث عن عملي وقد وجدت سلواي العظمى في مزاولة الموسيقى وما جرى مجراها من وسائل التسلية.

اتبع الپاپا كليمنت نصيحة السيد (جاكوبو سالڤياتي) فأستغنى عن الأفواج الخمسة التي أرسلها له السيد (جيوڤاني) الذي أدركه الأجل المحتوم في لومبارديا. وما أن بلغ الأمير البوربوني[٩٦] ان روما خالية من قوة تحميها حتى زحف عليها بجيشه بأسرع ما أمكنه وهبّ أهل روما للدفاع عن أنفسهم بسلاحهم، ودرء الخطر عن مدينتهم.

كنت صديقاً حميماً (لاليساندرو) ابن (پيرو دل بيني Piro del Bene) وعندما هاجم (الكولـونّيسي Colonnesi)[٩٧] روما طلب مني في الواقع أن أتولى حراسة قصره وبناء على هذا رجاني الآن بأن أنتقي خمسين رجلاً أكون على رأسهم لأجل حراسة القصر مجدداً في هذه المناسبة التي تفوق سالفتها خطورةً. فانتقيت خمسين من الشبان الشجعان واتخذنا القصر مقراً حيث عوملنا خير معاملة ونُقدنا أجراً سخياً.

بلغت طلائع الجيش البوربوني في المدينة وعسكرت امام الأسوار فرجا منّي (اليساندرو دل بيني) أن أرافقه للإستكشاف. فاخترت واحداً من رجالي المخلصين وانطلقنا وانضمّ إلينا ونحن سائرون فتى يدعى (چكينو دللاّ كاسا Cecchino della Casa) ولما بلغنا اسوار (كامپو سانتو Compo Santo) لاحت لاعيننا جحافل ذلك الجيش المهيب وهو يبذل محاولات مستميتة لخرق السور والنفوذ الى المدينة. واعتلينا ناحية من السور كان القتال فيها على أشدّه فشاهدنا عدداً كبيراً من جثث الشبان الذين فتك بهم المهاجمون وكان الضباب يغطيّ الموقع بصورة كثيفة لايتصورها العقل. التفت الى اليساندرو وقلت:

- ألا فلنسرع بالعودة الى القصر جُهدَنا. فليس ثم مانعمله هنا والعدوّ الآن يتسلق الأسوار ورجالنا يطلقون سيقانهم للريح يبغون النجاة.

فشاع الخوف في اليساندرو وطفق يصيح:

(٩٦) إنفصل شارل دي بوربون عن قريبه فرانسوا الأول في العام ١٥٢٣ وتحالف مع الإمبراطور شارلكان وزحف على روما بجيش قوامه عصابات من المرتزقة الألمان وغيرهم من بلدان أوروپا. وفيما هو يضرب الحصار على المدينة أصابته رصاصة من المدافعين عن الأسوار بمقتل فقضى نحبه. وقد أدعى چلليني كما نرى بهذه المأثرة لنفسه إلاّ أن إدعائه لم يؤيده أحدٌ.

(٩٧) نسبة الى (كولونا) وهي أسرة شهيرة إيطالية تداني شهرتها آل مديتشي وفارنيزي وبورچيا وغيرها. ظهر منهم الساسة والقادة والپاپاوات. وقد تحالفت هذه الأسرة مع الإمبراطور وفي العام ١٥٢٦ خاصموا الپاپا كليمنت. وكان يرأس مسلحيّهم (بومپيو كولونا Pompeo Colona) فأشاعوا الرعب بين الأهلين وأجبروا الپاپا كليمنت على اللجوء الى قلعة سانت أنجلو. الى أن عقدت معاهدة ١٥٢٦ وكانت في صالح الإمبراطور.

- ليتنا لم نأت.

ودار على عقيبة وهمَّ بالفرار كالمجذوب. فصددته عن ذلك وصرخت به:

- أنت الذي جئت بي الى هنا. وعلينا أن نثبت بأننا رجال.

وفي عين الوقت صوبت بارودتي الى أكثف بقعة من صفوف العدو وأطلقتها مستهدفاً شخصاً مبرزاً يرتفع عن سائر المتحلقين حوله. وما أدري أكان فارساً أم راجلاً فقد حالت سحابة الدخان بيني وبين التثبت منه، ثم استدرت بعجلةٍ شديدة نحو (اليساندرو) و(چكينو) وأشرت عليهم بإطلاق بواريدهم مرشداً إياهما الى كيفية إطلاقها بحيث يتحاشون نار المهاجمين. ورمى كلّ منّا بندقتين متتاليتين ثم تطلعت أمامي مختلساً النظر من فوق السور فوجدت اضطراباً عظيماً يسود جحافل العدوّ ذلك لأن واحدة من بندقاتنا قد أصابت أمير البوربون بمقتل. ومما استنتجت فيما بعد لابُدّ وانه كان ذلك الرجل الذي أستهدفته بندقتي لبروزه عن جماعته.

بعد هذا انسحبنا فقطعنا (كامپوسانتو) ودخلنا من باب (سان بيترو) ثم درنا من خلف لنخرج ونحن عند كنيسة (سانت أنجلو) وبذلنا أقصى جهدٍ للوصول الى باب القلعة إذ كان كلّ من (ريينزو دا چيري Rienzo da Cerie) و(أورازيو باليوني Orazio Baylioni)[٩٨] منهمكين في قتل أو جرح كل من هرب من القتال فوق الأسوار. وفي الوقت الذي بلغنا المدخل. كان بعض قوات العدو قد إقتحم روما فراحت تجدّ في اثرنا. وكان قائد الحصن يهمّ بإنزال الأبواب الوقائية وسدّ المدخل فأخلى طريقاً وهذا مامكننّا من شقّ طريقنا الى الداخل.

ما أن أحتوتنا القلعة حتى أمسك بي القائد (پاللوني دي مديتشي Pallone de Medici) وإستبقاني لأني كنت من موظفي القلعة. وأجبرني آسفاً على مفارقة (اليساندرو) وفيما كنت أصعد الى البرج دخل الپاپا القلعة من الأنفاق السريّة وكان قد أبى مغادرة قصر سانت پيتر مستبعداً أن يقوى العدو على إقتحام أسوار روما ودخولها فاتحاً.

وهكذا وجدت نفسي في القلعة. دنوت من بعض المدافع التي كانت بإمرة مدفعيّ يدعى گويانو الفلورنسي. فرأيته واقفاً يتطلع من فوق السور الى منزله وهو في يد الأعداء ينهبون مافيه ويعتدون على إمرأته وأولاده. ولم يجسر على إطلاق المدافع خشية أن تصيب أسرته. فرمى بفتيلة القدح وأنشأ يلطم وجهه وينتحب بحرقةٍ ولم تكن حال المدفعيين الآخرين بأحسن من حاله فقد أصابهم شلل. عندما رأيت هذا أمسكت بقادح ورحت بمعونة من بقي محتفظاً برَباطة جأشه، أوجه بعض المدافع الثقيلة والخفيفة وأطلقها على تجمعات العدوّ حيثما اقتضت الحاجة. وبهذا الشكل جندلت عدداً كبيراً من أفراد العدو ولولا صنيعي هذا لاستطاعت القوات الغازية التي دخلت روما صباحاً وزحفت على الحصن مباشرة، أن تقتحمه بسهولة لأن المدافع كانت عاطلة. واصلت إطلاق القذائف دون توقف بمصاحبة بركات الكرادلة وتشجيع رهط النبلاء فشدّ ذلك من عزمي ورفع معنوياتي بحيث صرتُ

(٩٨) من افراد أسرة پيروجية شهيرة عرف رجالها بشدة المراس. كان سجين الپاپا في قلعة سانت أنجلو فأطلق سراحه لأجل الدفاع عن الحصن والمدينة. صار فيما بعد قائداً للباندنيزي وقُتل وهو يخوض معركة في ناپُلي (١٥٢٨).

أحاول المستحيل. وعلى كلٍّ يكفي القول إن ماقمت به كان العامل الوحيد الذي أنقذ الحصن صباح ذلك اليوم وإن عملي أدى إلى عودة المدفعيين الى واجباتهم. ولم أتوقف لحظة واحدة طول اليوم حتى حلَّ الظلام.

ثم، وفي أثناء ماكان جيش العدو يتدفق الى داخل روما من جهة (تراستيڤيري Trastevere) عيّن البابا (أنطونيو سانتا كروچي Antonio Santa Croce) وهو نبيل روماني عالي القَدْر قائداً للمدفعيّة. فكان أول ما عمل أن جاء اليّ وأظهر لي عطفاً لامزيد عليه ونصبني آمراً لبطارية تتألف من خمسة مدافع ممتازة في الـ(انجيل: البرج Aingel) وهي أعلى موضع في القلعة. تلك باحةٌ تدور على طول القلعة وتشرف على (پراتي) وسائر أحياء روما. ووضع تحت أمرتي فصيلاً من الجند لمعاونتي في معالجة المدافع ودفع مخصصّاتي مقدماً وأجرى عليّ خبزاً وخمراً، ثم رجاني الإستمرار بالشكل الذي بدأتهُ. وكنت شديد الشوق والرغبة في الواقع ربمّا لأن طبعي يميل الى الحرب والقتال أكثر من مزاولتي صناعتي الحقيقية. وبنتيجة ذلك كان إنجازي هنا أعظم بكثير من إنجازي في صنعة الصياغة!

أرخى الليل سدوله وبه أتمّ العدوّ إحتلال روما. ووقفنا نحن المدافعين عن القلعة وأنا بالذات الذي كان لايملّ من الإستمتاع برؤية الأشياء غير الإعتياديّة – وقفنا نتأمل في الحرائق والمنظر الذي لايصدق الممتد أمام أعيننا. لقد بلغ من الغرابة بحيث لايمكن أن يتصوره أو يتميزه أحدٌ إلاّ أولئك الموجودين في القلعة. على أني لن أعمد الى وصف هذا المشهد. وسأقصر الكلام عن وقائع حياتي وما يتعلق بها من أحداث مباشرةً.

لم أتوقف مطلقاً عن إطلاق مدافعي خلال شهر كامل كُنّا خلاله محاصرين داخل القلعة. وقد جرّ هذا إلى مختلف الأحداث والوقائع وكلها يستأهل الذكر. إلاّ أن كرهي الإطالة سيجعلني أهمل التفاصيل حول ما لايتعلق بحرفتي. وسأترك معظمها وأصف فحسب ما لابُدّ لي منه – أعني الوقائع التي تمتاز بأكثر الطرافة والغرابة. وأوّلها هو أن السيد (أنطونيو سانتا كروچي) طلب مني النزول من البرج لأوجّه بعض القذائف الى بعض المنازل القريبة من القلعة كان قد إحتلها بعض رجال العدو. وفيما أنا أصليهم بقنابري، سددتْ قذيفة مدفع موجهة اليّ إلاّ إنها أصابت السور وهدمت جزءً منه. ولم أصب بسوء إلاّ أن الانقاض إنهالت من الأعلى وسقطت على صدري فألقتني على الأرض مبهور الأنفاس جثّة هامدة كالمغمى عليه. لكن كان في وسعي أن أسمع أقوال الناس الواقفين حولي. وسمعت (أنطونيو سانتا كروچي) يصرخ بألمٍ:

– وا أسفي عليه! فقدنا فيه خير ما لدينا من عضيد.

واجتذبت الضجّة إلينا صاحباً لي وهو الزّامر (جيانفرانشسكو) وبصرف النظر عن أسمه الذي ينم عن حرفته فقد كان إطلاعه في أمور الطب يفوق تمكنّه من الموسيقى. شاهد ماوقع وأسرع وهو يبكي وجاء بقارورة من أجود الخمور اليونانية ثم سخنّ آجرّه حتى إحمرّت من فرط الحرارة. ووضع فوقها ملء كفّ من الأفسنتين وسكب فوقه محتويات القارورة. وعندما تشبعت الأعشاب بالخمر وضع الآجرّة على صدرى فوق الرضّ الظاهر وضغط عليها. وأحدث الأفسنتين أثره في الحال فعاد اليّ

رشدي وحاولت أن أقول شيئاً لكن صوتي احتبس في حلقي ولم أستطع النطقّ بشيء. والسبب هو أن بعض الجنود الأغبياء بادروا الى حشو فمي بالتراب معتقدين إنهم يمنحوني بذلك الأسرار الأخيرة. في حين أنهم كادوا يقضوا عَليّ بالحرمان الكنسي بقدر ما يتعلق الأمر بحياتي! وعانيت الأمرين حتى عدت الى حالتي الطبيعية. فما أصابني من التراب كان أشدّ مما اصابني من الضربة؛ بعد أن تمالكت نفسي تماماً عدتُ الى أتونّ المدافع أطلقها بكلّ حماسةٍ ومثابرة.

لجأ البابا الى طلب العون من دوق أوربينو[٩٩] الذي كان يقود جيش البندقية. وأرسل له من يعلمه بخطته وهي: تضرم القلعة ثلاث نيران تحذيرية من أعلى بنائها بصورة متواصلة كل ليلة وتطلق ثلاث قذائف معاً ثلاث مرات. طالما ترسل القلعة هذه الإشارة. فمعناه إنها مازالت صامدة. وكان من ضمن واجباتي إشعال النيران وإطلاق المدافع. وواصلت أثناء النهار توجيه قذائف مدافعي حيث تحدث أكثر ما يمكن من الضرر وارتفعت مكانتي عند البابا بعد أن شاهد بنفسه كيف أقوم بواجبي. ولم تأت النجدة من الدوق ولا أريد الخوض في الحديث عن العلل والأسباب فهذا ليس من شأني واللبيب تكفيه الإشارة.

وبينما كنتُ مثابراً في أعمال إبليس هذه، اعتاد بعض الكرادلة المقيمين في القلعة أن يختلفوا اليّ ويراقبوني. ولاسيما كردينال راڤنّا وكردينال دي گادّي de Gaddi[١٠٠] وقد رجوت هذين الأثنين أكثر من مَرّة بأن لايقترباً كثيراً منيّ لأن طاقيّتيهما الحمراوين البغيضتين يمكن مشاهدتهما من مسافةٍ بعيدة، ونجم عن ذلك إننا تعرضنا الى خطرٍ كبير من البنايات المجاورة مثل قصر (تورّي دي بيني Torre de Bini) ولما لم يؤثّر قولي فيهما أمرت بقفل غرفتيهما عليهما، وبذلك خلقت لي منهما عدَوّين لدودين.

فضلاً عن هذا كثيراً ماكنت أحظى بزيارة (أورازيو باليوني) الذي كان شديد الحبّ لي. وذات مَرّة بينما كان يبادلني الحديث لاحظ تجمعاً ولغطاً في حانة كانت تقع خارج مدخل القلعة في محلة تدعى (باكّانللو Baccanello) ولافتة الحانة كانت على شكل شمس حمراء اللون رُسمت بين إثنين من النوافذ. وكانت النافذتان مسدودتين الأمر الذي استنتج منه (أورازيو) وجود جمع حاشدٍ من الجنود خلفها ووراء اللافتة بالضبط يعاقرون الخمر ويحتفلون. فقال لي:

– بنڤنوتو! لو أنك انحرفت عن سبيلك وأطلقت قذيفة مدفعك الصغير بمسافة ذراعٍ من اللافتة فأغلب ظنيّ إنك ستحقق عملاً مأثوراً. هناك ضجيج ولغط عظيمان يصدران من الحانة ولابُدّ وأن فيها بعضٌ من ذوي الشأن والمكانة.

قلت:

(٩٩) هو (فرانشسكو ماريا دللاً روڤيري) القائد العام الجيوش البابا والتعريض الذي يخصه به چلليني لاشكّ يستأهله لعدم كفاءته أو ربما لخيانته.

(١٠٠) وضع هذا الكردينال بمثابة رهينة عند حلفاء الإمبراطور، وأرسل الى نابُلي ولما قُتل اليساندرو دي مديتشي (أنظر الحواشي السالفة) قام بمحاولة فاشلة لإعادة النظام الجمهوري في فلورنسا. ورد ذكره أكثر من مَرّة في هذه المذكرات وكانت وفاته في العام ١٥٥٢.

- اني قادر على إصابة الهدف في القلب. إلاّ اني قلق بسبب برميل مليء بالحجارة كان قائماً بالقرب من فوهة المدفع فقد ينقلب ويسقط الى الأسفل بتأثير قوّة الإطلاق.

فأجاب يقول:

- لاتضع الوقت يابنڤنوتو فأولاً لايمكن أن يسقط بقوة إندفاع القذيفة وموضعه كما ترى. وثانياً لو سقط فالضرر الناجم سيكون بسيطاً لا كما تعتقد وان كان الپاپا نفسه يتمشى تحته. أطلق مدفعك.

كان في هذا فصل الخطاب. وأطلقت مدفعي وأصبت الشمس في الصميم مثلما وعدتُ. لكني كنت قلقاً حول البرميل فقد سقط كما قدرتُ بين الكردينالين فارنيزي[١٠١] وجاكوبو سالڤياتي ولولا الصدفة البحتة لقضي عليهما وسُحقا تحته. فقد كان الكردينال في تلك اللحظة يلوم زميله لأنه تسبب في حصار روما ونهبها ولهذا أخذا يتبادلان السباب فابتعد أحدهما عن الآخر ليكون أقدر على التعبير عن آرائه. وبهذا التباعد أخطأهما البرميل. وسمع السيد الطيب (أورازيو) الدوّي فاندفع الى تحت، واختلستُ نظرةً الى الصحن في الأسفل حيث سقط البرميل فسمعتهما يقولان:

- لابدّ من قتل المدفعي.

وعندها وجهت فوهة مدفعين نحو الدرج عازماً على أن يتلقى أوّل القادمين كائناً من كان كلّ القوة الضاربة لواحد منهما. ولاشك في ان بعض إتباع الكردينال (فارنيزي) أُمروا بالصعود والهجوم عليّ فوقفت عند المدفع وبيدي فتيل القدح مشتعلاً وصرخت بالمهاجمين وقد عرفت بعضاً منهم:

- إياكم أيها الحمقى الحقراء أخاطب! إن أجترءَ أحدكم على ارتقاء هذه الدرجات فلديّ مدفعان مهيئان وسأجعل اشلائكم تتطاير. انكُصوا على اعقابكم. عودوا ادرجكم وخبروا الكردينال باني كنت أنفذ أوامر رؤوسائي. وكل ما فعلنا وما سنفعل هو في سبيل الدفاع عن هؤلاء الكهنة لا إلحاق الأذى بهم.

فعادوا من حيث أتوا وأقبل (اورازيو باليوني) على أثرهم يعدو ويصعد الدرج نهباً فصحت به محذراً وأنا على علم تام بهويته... الاّ يتقدم والاّ فهو هالك. فتأخر قليلاً وفيه بعض خوف ثم قال:

- بنڤنوتو! أنا صديقك.

فأجبت:

- طيب. لابأس ياسيدّي تفضلّ ولكن بمفردك.

كان ذا كبرياء وعزّة نفس. فوقف ساكناً هنيهةً ثم قال بلهجة غاضبة:

- تحدثني نفسي بأن لا أتقدم وأن أفعل بعكس ما أنوى عمله بك تماماً.

فأجبته:

- مثلما كان وجودي هنا لغرض الدفاع عن الآخرين وحمايتهم. كذلك إني لقادر على الدفاع عن نفسي وحمايتها.

(١٠١)فيما بعد انتخب پاپا وتسمّى باسم پولس الثالث.

وعلى أثر هذا قال إنه جاء بمفرده. وعندما بلغ القمّة رأيت سحنته منقلبة. فوقفت هناك منتظراً ويدي على قبضة سيفي أصوبّ إليه نظراً حاداً. وما أن تلاقت إنظارنا حتى بدأ يضحك وانفرجت أساريره وعادت الى هيئها الطبيعية ثم قال متلطفاً:

- عزيزي بنفنوتو. اني لأشعر نحوك بأعظم الحبّ. وسأثبت لك ذلك بمشيئة الله. كنت أتمنى من صميم قلبي لو قضيت على هذين الوغدين. فأحدهما هو علّة كلّ هذه البلوى. ومن المحتمل جداً أن الثاني سيأتي بما هو أدهى وأمرّ.

ثم طلب مني (في حالة السؤال منيّ) أن لا أذكر وجوده معي عندما أطلقت المدفع. وأن لا أهتم أو أقلق بعد هذا.

انجرّت هذه الحادثة الى مضاعفات عظيمة. ولم يسدل عليها الستار إلاّ بعد وقت طويل جداً. إلاّ اني لا أريد التعقيب على ذيولها وسأقتصر على القول بأني كدت أثأر للوالد من (جاكوبو سالڤياتي) الذي على حَدّ قوله قد أساء إليه مرات ومرّات. ونكّل به. على اني ولو بدون قصدٍ؛ أرعبتُه وأريته الموت شاخصاً أمامة[١٠٢] أما عن (فارنيزي) فلا أقول عنه الآن شيئاً. وسيتبين من السياق كم كان من الخير لي لو قتلتهُ.[١٠٣]

واصلت القتال بمدافعي. لايمرّ عليّ يوم إلاّ وأسجل فيه مأثرة جديدة ونجاحاً باهراً لاينقضي يوم عليّ ان لم اجندل فيه بعض المحاصرين فيرتفع رصيدي عند الپاپا بإطراد.

واتفق ذات يومٍ أن الپاپا كان يتمشى حول الحصن ولمح في (پراتي) كولونيلاً أسبانياً كان في خدمته قبلاً. وعرفه من ميزات جسمانية معينة فيه. وبينما كان يخزره ببصره من فوق طفق يتحدث عَنه. وبدون علم مني بهذا كنت في عن الوقت أتطلع وأنا في أعلى نقطة من البرج فشاهدت شخصاً يشرف على حفر الخنادق كان يحمل رمحاً ويرتدى بزة عسكرية ورديّة اللون. صرت أفكر كيف أناله فتناولت مدفعاً صغيراً كان بالقرب منيّ ونظفته - إن المدفع الصغير هو في الواقع أكبر وأطول من البندقية ذات الحامل الدائر على الركيزة والشبيه جداً بالبندقية القصيرة. بعد أن نظفته حشوته بقدر كبير من البارود الناعم مخلوطاً بالخشن. وصوبت إليه باحكام رافعاً السبطانه في الهواء. لأنه كان على مسافة بعيدة ولا ينتظر من هذا الطراز من المدافع إصابة الهدف بدقة من هذا المدى. ثم أطلقت النار فأصبته في وسطه بالضبط. كان قد شد سيفه بتلك الخيلاء الإسپانية المعهودة لا الى الجنب بل الى أمام فأصابت القذيفة السيف وشطرت حامله شطرين. بلغ العجب بالپاپا منتهاه فضلاً عن سروره بما حصل وقد فؤجي بالأمر وهو مازال يتحدث عن الرجل. إذ كان يستبعد جداً أن يصيب أي شكل من المدافع هدفه من هذه المسافة البعيدة، بل يراه ضرباً من المحال. ولم يستطع أن يفهم كيف قُطع الرجل بالقذيفة الى قسمين ولذلك أرسل بطلبي وسألني الإيضاح.

(١٠٢) أنظر ماسبق حول محاكمة چلليني.

(١٠٣) يلمّح چلليني بهذا الى إعتقاله الطويل الأمد في قلعة سانت أنجلو بأمر من الپاپا پولس الثالث فارنيزي وسيأتي ذكره في القسم الثاني من المذكرات..

فخبرته بما تكلفته من عناءٍ في التصويب وأما عن قطع الرجل الى نصفين فهذا أمر لا أستطيع تعليله ولايستطيع هو نفسه. ثم خررت راكعاً على ركبتي طالباً غفران خطيئة القتل هذه وأمثالها التي اقترفتها دفاعاً عن الكنيسة في القلعة. فرفع يده ورسم شارة صليب كبيرة على رأسي وقال إنه يمنحني بركته ويغفر لي كلّ القتول التي ارتكبها في خدمة الكنيسة الرسولية. بعد ان انصرفتُ من لدنه صعدت الى البرج وواصلت إطلاق قذائفي بأحكامٍ. ولم تضع قذيفة واحدة عبثاً. وملك القتال عليّ كلّ مشاعري فنسيت دراساتي، رسومي، موسيقاي المحبوبة ضاعت كلها بموسيقى المدافع كلّها. ولو إني أوردت تفاصيل العظائم التي صنعتها في جهنم الحمراء هذه لأدهشت العالمين إلاّ اني سأمرّ بها مَرّ الكرام خشية الإطالة. بإستثناء بعض الأحداث الهامة الأخرى التي لايسعني اغفالها.

أجل كان كل أفكاري يتركز ليلاً ونهاراً فيما يمكنني عمله شخصيّاً للدفاع عن الكنيسة. ولعلمي إن العدو عندما يبدّل الحرس اعتاد المرور من باب (سانتوسپيريتو) الكبير وهو ضمن مدى مدافعي تماماً. فبدأت أوجه ناري الى تلك الجهة. إلاّ اني لم أوقع بالعدوّ الخسائر التي كنتُ أرجوها لأن الرمي كان منحرفاً. وإن كان عدد القتلى الذي ينجم عن قذائفي مما لايُستهان به. ولما تبين العدو أن طريقه معرض للخطر قام في احدى الليالي بتكديس أكثر من ثلاثين برميلاً فوق سقف بنايةٍ وبذلك حجب عنيّ خطّ الروية. فبدأت أفكرّ ملياً في وسيلة لمعالجة الموضوع فأهتديت الى حَلّ. حولت اتجاه مدافعي الثقيلة الخمسة الى البراميل مباشرة ثم انتظرت الى الساعة الثانية قبل المغرب وقتما يتم تبديل الحرس مباشرةً.

ولأن الحرس كانوا يتصورون بأنهم غير معرضين لخطرٍ ما فقد أقبلوا على هونهم بنفوس مطمئنة وبصورة متحاشدة وصفوف متقاربة أكثر من المعتاد. فلما أطلقت مدافعي لم أنسف البراميل التي كانت تعوقني بل قتلتُ أكثر من ثلاثين رجلاً دفعة واحدة نتيجة سقوط هذه البراميل عليهم وحققت عين القدر من الخسائر مرتين أخريين، وأوقعت خللاً كبيراً في صفوف العدوّ. وبنتيجة هذا وكذلك لأنهم أثقلوا بالأسلاب جراء النهب العظيم ورغبتهم في التمتع بما كلفهم الغالي من التضحيات، فقد سادتهم روح العصيان والهروب من الخدمة على أن قائدهم المقدام چيان دي أوربينو[١٠٤] Gian di Urbino سكّن ثائرتهم. وأضطروا كارهين الى إستبدال طريقهم. وسلوك سبيل دائرية بطول ثلاثة أميال عوضا عن نصف الميل السابق.

بعد هذه المأثرة صرت موضع إحترام وتكريم خاص من قبل جيمع النبلاء في القلعة وقد أدى ذلك إلى نتائج كنت أريد أن أذكرها وأنفض يدي منها لكنها أمور لا علاقة لها بصناعتي وهي الدافع الحقيقي لما أدوّنهُ. ولو شئت تزيين قصة حياتي بأحداث من هذا القبيل لأطلت الكتابة كثيراً. إلاّ أن ثم حادثاً واحداً ينبغي لي أن أذكره.

وسأغفل الكثير وأجيء الى الوقت الذي استدعاني البابا كليمنت وقد أستبدّ به القلق والحرص على إنقاذ التيجان البابوية والأكداس المكدسة من الأحجار الكريمة والحلي الرائعة التي تعود إلى

(١٠٤) قائد إسباني شهير كان في معية أمير أورانج الهولندي أثناء الحصار.

الكرسي الرسولي. أخذني الى غرفته وأغلق علينا الباب وكان ثالثنا (كاڤاليبرينوCavalierino) فقط، وهو في السابق سائس خيل النبيل (فيليپو ستروزي[١٠٥]). فرنسي المولد وضيع المنبت لكنه خادم مخلص للغاية وأهل للثقة دون حدّ، وكان الپاپا كليمنت قد صبّ النقود في جيبه واعتمد عليه اعتماده على نفسه. لم يكن في الغرفة المقفلة غيرنا نحن الثلاثة: الپاپا، كاڤاليبرينو، أنا. وضعا التيجان الپاپاوية، وأكداس الجواهر العائدة للسدّة الرسولية أمامي وأُمرت بنزاع الأحجار الكريمة من مواضعها في الحلي الذهبية. فقمت بما طلب منّي. وبعد أن لففتها بالكاغد خطاها ببطانة ثياب الپاپا وثياب كاڤاليبرينو، بعد فراغنا من هذا دفعاً اليّ بكل الذهب المتخلّف وتقدر زنته بحوالي مائتي پاوند وطلبا مني أن أصهره وأجعله سبائك بنهاية مايمكن من السريّة. فصعدت الى البرج حيث أمنت من دخيلٍ أو رقيب وكان لدي غرفتي الخاصة ومفتاحها في يدي وبإمكاني إقفالها. بنيت داخل الغرفة كوراً من الآجر ووضعت في قعره وعاء كبيراً مما يستخدم لإحتواء نفاية المعدن على شكل صحفة طعام وبدأت أضع الذهب فوق الفحم فأخذ يذوب ويسيل شيئاً فشيئاً في الصحفة. وكنت طوال الوقت والكور متقدّ - لا أفوّت فرصة واحدة في الحاق الخسائر بالعدو. أتابع تحركاته وأستطلع من علٍ. وكان مخندقاً تحتنا على مرمى حجر مَنّا. فقررّت أن أطلق عليهم بعض نفايات وكسارات من الذخيرة من أكداسٍ وجدتها هناك كانت فيما مضى تستخدم بمثابة عتادٍ فتخيَرت مدفعاً صغيراً وآخر متوسطاً كلاهما معطوب السبطانة. وحشوتهما بالعتاد الفاسد وأطلقتهما. فأنهالت مقذوفاتي عليهم كالحمم وأصابت العدو بضربات قاصمة لم تكن داخلةً في حسابه، وفي أثناء انهماكي بهذا واصلت عملية صهر الذهب. وقبل صلاة الغروب بقليل لمحت شخصاً يمتطي بغلاً يخبّ به بسرعةٍ على طول الخنادق والراكب يكلّم المخندقين. وكنت مستعداً بمدفعي قبل أن يصير مقابل خطّ ناري. فصوبت بدقةٍ وأصبته في وجهه بقطعة من الذخيرة التي كنت أستخدمها وأصابت بقية القذائف البغل فسقط ميتاً تحته. وعلى أثر ذلك سمعت ضجّة وصيحات هائلة من الخنادق. فأطلقت المدفع الثاني ناشراً الخراب والدمار.

الرجل الذي أصبتهُ كان أمير اورانج[١٠٦] وقد حُمل من الخنادق الى الحانة القريبة. وبعد قليل من الوقت توافد إليها كلّ القادة وأمراء العسكر واجتمعوا معاً. ولما سمع الپاپا بما حصل أرسل بطلبي وسألني كيف حصل هذا فقصصت الحكاية وزدت قائلاً: لابد وأن الجريح عالي المقام لأن كل قادة الجيش أسرعوا الى الحانة التي نقل إليها وهم الآن فيها مجتمعون.

كان الپاپا كليمنت سريع الخاطر ذا ذكاء متوقدٍ فاستدعى قائد المدفعية (أنطونيو سانتا كروچي)

(١٠٥) ورد ذكره في حاشية سابقة. تزوج بابنة پييرو دي مديتشي إلاّ إنه كان أشدّ خصوم هذه الأسرة. بعد موقعة مونتمورلو الذي هزم فيها سجن. وأما قتل نفسه أو إنه قتل داخل السجن بأمرٍ من الدوق كوزيمو دي مديتشي في ١٥٣٩.

(١٠٦) هو فيلبرت دي شالون Philbrert de Chalons نقض حلفه مع فرانسوا الأول وإنحاز الى الإمبراطور. ولذلك خلف أمير البوربون في قيادة الجيش الذي هاجم روما. وافاه الأجل و١٥٣٠ أثناء معركة كاڤينانا Cavinana.

وهو السيد الذي كنت قد ذكرته قبلاً وطلب منه أن يأمر سائر مدفعييه بتوجيه مدافعهم (وكان لدينا منها عدد يفوق الحصر) الى هدفٍ واحد وهو الحانة. وأن يصبّوا قذائفهم عليها في وقت واحدٍ عندما يسمعون الإشارة وهي اطلاقة بندقية. وكان بذلك يتوقع القضاء على كلّ القادة. ومن نتيجة ذلك أن يتمزق الجيش وينحلّ بعد أن كانت الفوضى قد دبت فيه. وزاد قائلاً:

– ربما سمع اللّه صلوات أولئك الذين لم ينفكوا عن التوجه إليه بضراعتهم فيكون هذا هو السبيل لتحررهم من الصعاليك الكفرة هؤلاء.

تهيأنا بمدافعنا طِبق أوامر (سانتا كروچي) وصرنا ننتظر إشارة البدء. وسمع الكردينال (أورسينو Orsino) بما يجري فهرع الى البابا يحتجّ. وقال انه محض جنون تنفيذ هذه العملية، بَعد أن أشرفوا على عقد الصلح. فلو قضي على القادة الكبار فإن الجنود الذين سيصبحون بدون ضابطٍ سيهاجمون القلعة ويقتحمونها ويلحقون الدمار التام بكلّ شيء. فهو مهددّ من الداخل قدر ما هو مهدد من الخارج. وفي لحظة يأسٍ ترك القرار لهم فألغيت الأوامر السابقة. ولإداركي بأننا سنؤمر بالتوقف عن الإطلاق. فقدتُ السيطرة على نفسي وأطلقت أحد المدافع الصغيرة فأصبت أحد أعمدة باحة البيت الذي كان ثم تجمع فيه. وأحدثت قذيفتي تخريباً كبيراً بحيث همّ العدوّ بإخلاء المكان. وأراد كردينال (اورسينو) أن أُشنق أو أُرمى بالرصاص فوراً لولا دفاع البابا الحار عني. ومع إني أتذكر جيداً العبارات الخشنة الغاضبة التي تبودلت بينهما إلاّ اني لن أثبتها لأني لا أكتب تاريخاً. وسأقصر الموضوع على شووني الشخصيّة.

بعد إذابتي الذهب حملته الى البابا فشكرني بحرارة على حسن صنيعي ثم أمر كاڤاليرينو بأعطائي خمسة وعشرين كراوناً معتذراً بأنه لايملك أكثر لمكافأتي. وبعد بضعة أيام تمَّ إعلان الصلح.[١٠٧]

أنطلقت باتجاه (پيروجيا) برفقة كتيبة تتألف من ثلاثمائة رجل للإنضمام الى (اورازيو باليوني). وهناك صار يلحّ عليّ بقبول قيادة الكتيبة. فرفضت وقلت إني أريد أولاً الذهاب لروية الوالد. وثانياً لرفع عقوبة النفي المفروضة عليّ في فلورنسا. وهنا بُلّغ بأمر تسلمه قيادة قوات فلورنسا. وكان على إتصال بالموفد الفلورنسي (پييرماريا دي لوتو Pier Maria di Lotto) وقد زكّاني أمامه خير تزكية باعتباري واحداً من رجاله.

وهكذا بلغت فلورنسا مع عدد من الرفاق والطاعون يفتك بأهلها فتكاً ذريعاً ووجدت أبي الشيخ الصالح. وكان موقناً بأني إما قتلت في أثناء حصار روما أو سأعود إليه في أسوء حالٍ. فكان عكس ماقدّر. إذ جئته حيّاً ومعي المال الكثير وخادم وجواد مطهّم أصيل. وغمرنا الفرح الطّاغي في هذا

(١٠٧) سُلمت القلعة في الخامس من حزيران إلاّ إن البابا كليمنت ظلّ حتى الثامن من تشرين الثاني معتقلاً ولا شبهة في أن چلليني ساهم في الدفاع عن الحصن حتى الأخير. على أن وصفه لبطولاته ومآثره يجب أن يؤخذ ببعض التحفظ. وللوصول الى أوثق الروايات عن حصار روما، أنظر باكي (المرجع السالف ص٧١).

اللقاء ووقع عليّ الوالد الشيخ يقبلّني ويحتضنني حتى خيل لي أنه سيسقط ميتاً. حدثته بكلّ ماتعرضت له من الأخطار الجسام التي عانيتها في حصار روما ثم دفعت إليه بمبلغ كبير من المال حصلت عليه في خدمتي العسكرية. وإعتنقنا وتلاثمنا عدة مرات. ثم انطلقنا فوراً الى مجلس الثمانية لرفع قرار النفي الصادر بحقيّ.

وتشاء الصدف أن يكون أحد الذين أصدروا الحكم عليّ عضواً في المجلس مرّة ثانية. وهو عين الرجل الذي خاشن الوالد وأنذره بأنه سيسعى الى إعدامي الحياة. وهكذا نال الوالد ثأره ببعض عبارات التعريض مدعماً بالمكانة التي نلتها عند (أورازيو باليوني).

هكذا كان الوضع عندما صارحت الوالد بأن السيد (أورازيو باليوني) قد اختارني ضابطاً عنده وأنّ على الآن التفكير في تعبئة جنودي وتنظيم الكتيبة. فاضطرب المسكين إضطراباً عظيماً وأنشأ يتوسل بي مستحلفاً بمحبة الله أن أعدل عن هذا المسلك وان كان يدرك جيداً أن ما في نفسي من مَلَكات يجعلني كفوءاً لذلك بل ولأمور أعظم. وأضاف يقول انّ ابنه الآخر شقيقي، يقوم بأعمال بطولية بوصفه عسكريّاً. وأما أنا فعليّ أن أكرّس نفسي الى فنيّ العجيب الذي أفنيت في إتقانه والدرس فيه السنوات الطوال. ومع اني وعدته بإطاعة أمره إلاّ أنه أدرك بذكائه المعهود وحسّه المرهف بأني - حال ظهور أورازيو على المرسح وبسبب الوعد الذي قطعته له وغير ذلك من أسباب كثيرة أخرى - سأنضم إليه في حملته العسكريّة. ثم تفتق ذهنه عن أفضل تحليل لإقناعي بترك فلورنسا والتوجه الى (مانتوا) فقال لي:

- ولدي الحبيب هاهنا الطاعون قد أستشرى وإني لأرتعد فرقاً إذ أتصورك دائماً وأنت قادم الى البيت تحمل هذا الوباء. وأذكر إني رحلتُ في شبابي الى (مانتوا) حيث أصبت الربح والشهرة وبقيت عدة سنين فيها. لذلك أتوسل بك بل آمرك مستحلفاً إياك بمجبتك لي أن ترحل إليها. وسفرك اليوم خير من سفرك في الغد.

كنت دائماً مغرماً بالتنقل ورؤية الدنيا. ولأني لم أكن قد رأيت (مانتوا) قبلها فقد سرّني التوجه إليها. تركت لأبي معظم المال الذي حملته الى البيت. وتعهدت بأن أبقى في عونه أينما كنتُ وتركت أختي الكبرى للعناية به. كانت تدعى (كوزا) وكانت قد عزفت عن الزواج وترهبت في دير (سانتا اورسولا) إلاّ انها أجّلت دخولها الدير ومراسيم التكريس لتتولى العناية بالوالد المسنّ المسكين. ولرعاية أختنا الصغرى المتزوجة بنحّات يدعى (بارتولوميو).

امتطيت جوادي الرائع الأصيل وانطلقت نحو (مانتوا)[١٠٨] مزوّداً ببركة الوالد. ولو إني عمدت الى وصف هذه الرحلة القصيرة بتفصيل لأخذت كتابته مني وقتاً طويلاً. كانت الدنيا إذ ذاك تجثم تحت غيوم الحرب والطاعون، فلم أبلغ المدينة هدفي إلاّ بشق الأنفس. إلاّ اني رحت أبحث عن عمل حالما وطئتها قدمي.

وجدت ضالتي عند صائغ ميلانيّ يدعى (نيقولو) وهو صائغ دوق مانتوا الخاصّ. مامَرّ عليّ يومان

(١٠٨) تبعد هذه المدينة عن فلورنسا زهاء مائة وخمسين كيلومتراً الى الشمال.